العقلية العلمية فى فكر طه حسين(*)

بقلم الدكتور محمد يوسف حسن

أود فى مناسبة إحياء العيد المئوى لمولد خالد الذكر المغفور له الدكتور طه حسين أن أسهم بمحاولة لتجلية جانب فريد قليل الذيوع من جوانب فكره الفذ . لقد سعدت وشرفت بأن عاصرت ذلك الطود الشامخ فى تاريخ الأدب، بل وفى تاريخ الفكر كله ، عربياً وعالمياً ، فطه حسين أديب فذ ، وفنان عظيم ، بل هو بكل جدارة عميدُ الأدب العربى وزعيمه فى العصر الحديث ، وصاحب أسلوب طلىٌ فريد على مدى العصور . وهو أيضاً ناقد عالم بارع ، ومعلم قدير لا يبارى ، ولكنه - فيما أريد تجليته الليلة من جوانب عبقريته - قد بنى كل هذا - فى رأيى - على عقلية علمية سليقية عنده ، ظهرت أول ما ظهرت فى تمرده وهو فتى يافع على أسلوب الدراسة العتيق العقيم فى الأزهر وقت طلبه للعلم فيه ؛ ذلك لما كان يتسم به هذا الأسلوب من إملائية وعدم قبول للروح العلمية فى الجدل والمناقشة من أجل التوصل إلى الحقائق . وتلك دُجَنٌ مكدِّرة انجابت عن سماء فكره الحر ، وجوانب روحه المنطلق ، لما تحقق له الالتحاق بالجامعة المصرية الوليدة حينذاك ، والتى وجد فيها مبتغاه من العلم ، ووجد فيها صدى لما فى نفسه من اتجاه متحرر فى أسلوب الدرس والبحث كانت ثمرته ذلك الأسلوب الديكارتى النزعة الذى اتسم به أدبه فى البحث قبل أن يسافر فى بعثته إلى فرنسا . ونحن نرى إرهاصات هذا الفكر الديكارتى فى رسالته للدكتوراه بالجامعة المصرية عن أبى العلاء المعرى .

وقد تجلى هذا الأسلوب التحليلى أكثر ما تجلى فى كتابه " فى الشعر الجاهلى " بعد عودته من البعثة واضطلاعه بالتدريس الجامعى فى مصر .

ولا يُبلبلَنّ فكر أحد منا ، عن جدوى الكلام عن النزعة العلمية فى فكر طه حسين وبحثه الأدبى ما ظهر فى السنوات الأخيرة بعد رحيله من أهمية الأسلوب التجميعى والكلى (Synthetic and Holistic)فى أجواء العلم الطبيعى بحثاً وفلسفة ؛ وهو اتجاه يوصف بأنه " لا ديكارتى " لكن له ما يبرره الآن بعد التحول الهائل فى مفاهيم علم الفيزياء الحديثة وبخاصة الفيزياء النووية

(*) حديث ألقى أمام جمعية الأدب المقارن - كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، الاثنين ١٩ من ديسمبر ١٩٨٨ .

والجسمية[1]، وإنى لأحدس أن طه حسين وهو زعيم التجديد والتجدد – أحدُسُ لو أنه بيننا الآن لقال إن هذا الأسلوب مناسب ومفيد الآن فى تناول جوانب معينة فى تاريخ الآداب . بل إنى أزعم أنه قد مارس هذا الأسلوب بالفعل قبل ظهوره فى عالم العلوم الطبيعية بنحو نصف قرن . فقد كان فى العشرينيات والثلاثينيات يدرس الأديب وأدبه ككل ، بل ويدمج فى هذا دراسة شخصية الأديب وظروف مولده وأسرته ونشأته وشيوخه بالإضافة إلى دراسة مجتمعه وظروف عصره السياسية والاقتصادية ... الخ ، ليخرج بنظرية شاملة متكاملة عن طبيعة أدبه وأسلوبه ونزعاته ومصادر وحيه وغير ذلك من الجوانب التى يريد تجليتها ، ويتضح هذا فى دراسته لأبى العلاء المعرى وللمتنبى . وقد كان رائداً فى هذا الأسلوب البحثى فى هذا العصر .

ولقد غشت عصر طه حسين بأكمله من بعد ظهور " ذكرى أبى العلاء "[2] بوقت قصير حتى إصدار الجزء الثالث من " الأيام " ، بل حتى قصة " ما وراء النهر "[3] التى نشرت بعد رحيل الفقيد العظيم . ولقد كان أول ما سمعت أذنى من أدب وأنا بعد طفل يتعلم مبادىء القراءة والكتابة فى الكُتّاب والمدرسة الأولية ، أدب " الأيام " الذى كان يقرؤه لى ويقرئنى إياه ، والدى عليه رحمة الله ليحببنى فى الأدب العربى ، وكان من هواته ، ومن المعجبين برائده الشاب المجدد الثائر فى تلك الأيام . وكم هزتنى وبهرتنى وأنا فى تلك السن الصغيرة الأحداث التى أثارها كتاب طه حسين الفذ " فى الشعر الجاهلى " فى أواخر العشرينيات وأول الثلاثينيات ، وكنت تلميذاً بالمدرسة الابتدائية لكننى كنت أتابع تلك الأحداث بوعى وشغف وتفتح .

وإن أنسَ لا أنسَ تلك الأجواء الفواحة بأريج الثقافة الراقية ، وعبقرية الفكر المنظم ، وسحر الصوت المعبر المتئد الواثق النافذ إلى لباب العقول وحبات القلوب وحنايا النفوس عندما كنا نستمع ونحن أيفاع بالمدرسة الثانوية إلى " حديث الأربعاء " بصوت العميد فى المذياع الذى كان قد دخل مصر منذ سنوات قلائل وأسهم بدور كبير فى نشر

---

(١) Fritjof Capra a - " The Turning Point " 1982 Pantam books , New York .
b - " The Tao of physics " 1977 Pantam books , New York

(٢) طه حسين : " تجديد ذكرى أبى العلاء " : دار المعارف ، ط ٧ ، ١٩٦٨ .

(٣) طه حسين : " ما وراء النهر " : دار المعارف ، ط ٣ ، ١٩٨١ .

الثقافة وكم كان يثير بيننا هذا الحديث من جدل وتعليقات وتساؤلات وإعجاب لاحد له .

ولقد شغفت بدراسة كتاب " ذكرى أبى العلاء " وأنا طالب بالمدرسة الثانوية ثم فى أثناء طلبى العلم بالجامعة . قرأته وأعدت قراءته بعناية فائقة وشغف شديد وكانت قراءتى له وأنا فى مرحلة الطلب بالجامعة فى كلية العلوم هى أولى لحظات انتباهى إلى العقلية العلمية لدى طه حسين ، فقد كانت نظرتى العلمية للأشياء والأفكار قد تأصلت ، ووجدت أن مثل هذا البحث فى الآداب بما فيه من جدة وكشف مضىء لا تنجزه إلا عقلية ذات سليقة علمية لأديب عبقرى فذ مثل طه حسين .

وتحضرنى ذكرى واضحة ملحة لمناسبة آمنت فيها بأصالة العقلية العلمية وطبيعتها عند طه حسين . تلك هى ذكرى الندوة المشهورة التى عقدتها كلية العلوم بجامعة القاهرة (وكانت آنذاك الجامعة الوحيدة بالبلاد) ، عقدت تلك الندوة كلية العلوم عن (العلم والأدب) وكان فرسان الندوة على قدر ما تجمع الذاكرة هم : الدكتور طه حسين والدكتور محمد حسين هيكل والدكتور على مصطفى مشرفة عميد الكلية والصحفى الأديب والخطيب اللوذعى توفيق دياب . وانقسم المتحدثون فريقين : إحدهما يدافع عن العلم وبه طه حسين عميد الأدب وزعيمه ، والآخر يدافع عن الأدب وبه مشرفة عميد كلية العلوم ، وكم كانت الندوة مبهرة وساحرة . ولم يكن بالمدرج الذى يتسع لقرابة الألف مستمع مكان خالٍ .

وإن أنس لا أنس دفاع طه حسين الأديب الفنان المرهف الشعور ، لا أنسى دفاعه عن رحاب العلم وساحته ، ولا كلامه المرتب المقنع دفعاً عن الواقعية والبعد عن الأوهام ، والتجرد عند التصدى لدراسة أى موضوع ، من تأثير الأفكار السابقة فيه . ولا أنسى حثه على اللجوء إلى المنهج العلمى التحليلى فى تناول المسائل أياً ما كانت . وقد ضرب أمثالاً طريفة عن بعض الخرافات التى تناقلتها الأجيال مما يصور الماضى على أنه كان أفضل من الحاضر . فكان يقول إن تلك المزاعم قد يكون لها جمالها من حيث إنها حكايات خرافية مسلية فقط . ولكن يجب ألا تؤخذ على سبيل التأكيد بأن كل قديم أحلى وأبرع وأكثر بركة من كل حديث ، فطبيعة الأشياء تجرى على وتيرة واحدة منسجمة طول الزمان

فلا يجوز أن تدفعنا هذه المزاعم إلى الأسى على ما فات وعلى فساد الأشياء مع فساد الزمان ، وإلى اليأس من تطويرها نحو الأحسن بتطوير الفكر الإنسانى نفسه . وقد كان هذا يشدنى إلى المقارنة بين كلام هذا الأديب الكبير الممتاز وما كنا نسمعه فى دروس الجيولوجيا الأولى من أساتذتنا الأوربيين فى نقد نظرية الكوارث القديمة ، وجمع الشواهد على صحة مذهب أساسى فى الجيولوجيا الحديثة كانوا يسمونه

(Docrine of Uniformitarianism)

وكان أول من نادى بهذا المذهب إمام يلقب بأبى الجيولوجيا الحديثة واسمه السير تشارلس لايل فى أواسط القرن الماضى . وكان من نتائج مذهبه هذا أيضاً القاعدة الجيولوجية التى سنها بمنطوق " الحاضر مفتاح الماضى "، وهى قاعدة تنبنى عليها أصول وطرائق كل بحث جيولوجى حتى الآن . ظلت هذه الفكرة والمقارنة فى ذهنى حتى كبرنا وعملنا بالتدريس الجامعى فوضعت لمذهب لايل مصطلحاً عربياً يعرف الآن باسم " مذهب الوتيرة الواحدة " . هل كان طه حسين على علم بتلك المذاهب والقواعد العلمية ؟ أو أن عقليته العلمية السليقية كانت تحدوه إلى هذا النمط من التفكير ؟ والراجح هو الرأى الثانى . ومن كتب طه حسين التى لا تنسى فى حياتى كتابه الفذ " مع أبى العلاء فى سجنه " الذى يغريك ويمهد لك السبيل إن قرأته – مهما يكن تخصصك – إلى قراءة أصعب كتب الأدب العربى وأمتعها على الاطلاق ، والاستمتاع بما تحويه من جواهر الأدب ، وشذرات العلوم ، ومتع الفلسفة ، تلك هى " اللزوميات " و " رسالة الغفران " و" الفصول والغايات " لأبى العلاء المعرى . قرأت هذا الكتاب"مع أبى العلاء فى سجنه " وأنا أخطو أولى خطواتى إلى حياة الجامعة ، وكان هذا الكتاب قد صدر فى وسط الثلاثينات . كم قرأت وأعدت قراءة هذا الكتاب ، ولى معه ذكريات لعل من أثبتها فى ذهنى أنه كان بيدى مصادفة وأنا فى مقابلة بخصوص ترشيحى لوظيفة معيد فى الجيولوجيا بجامعة الإسكندرية فى العام الثانى لإنشائها . وكان الممتحن فى تلك المقابلة العالم والأديب والفنان الراحل الدكتور حسين فوزى عميد كلية العلوم بالإسكندرية آنذاك . وحاولت أن أحول دفة الحديث معه نحو حصيلتى من علم الجيولوجيا

، فكان يثنينى عن ذلك بقوله : أما عن هذا فمثبت فى أوراقك أمامى ، ولكن حدثنى عن هواياتك الثقافية ، فلجأت إلى ماكان بيدى من شاهد على اهتمامى بالآداب وبخاصة أدب طه حسين وبسطت رأياً فى الكتاب ، وإذا بالرجل - وكأنه أعجبه ما عندى من اهتمام بالنزعة العلمية التى تظهر فى الكتاب - يستدعى على الفور معاون الكلية ويأمره أن يسلمنى العمل بقسم الجيولوجيا فى الحال . فكان وجود "كتاب مع أبى العلاء فى سجنه " بيدى الشفيع الأول لتعيينى بهذه السرعة الفائقة ، لاحصولى على تلك الدرجة الرفيعة فى تخصصى .

وأدخلتنى دراسة كتَابَى " ذكرى أبى العلاء " و " مع أبى العلاء فى سجنه " إلى عالم أبى العلاء المعرى . وقد أعود إلى تقييم جو العلم الطبيعى فى الكتابين والعقلية العلمية لصاحبهما بعد أن أنتهى من هذا السرد التاريخى لموضوع الحديث . لقد كان الكتاب المزامن فى الدراسة تقريباً لهذين الكتابين عندى ، هو كتاب" مستقبل الثقافة فى مصر" ذلك الكتاب العظيم الذى أحاط بكل قضية الثقافة والتعليم فى مصر تأريخاً وتأصيلاً وتطوراً وإمكانية للتطوير والتحديث والرقى . ذلك الكتاب بدأ الراحل العظيم فى تطبيق نتائجه ومفاهيمه على التعليم والثقافة فى مصر لما تولى أمرهما مستشاراً ووزيراً لمدة لم تكن للأسف طويلة بالقدر الذى يكفى لتحقيق طموحات طه حسين الواسعة التى تمناها لكل أنواع التعليم ومراحله ، والتى لم تتحقق بالوجهة الفكرية الصحيحة التى كان ينشدها فى دستوره بهذا الكتاب .

وجاءت فترة عاصرت فيها هذه العبقرية الفذة عن كثب لما كان صاحبها العظيم مديراً لجامعة الإسكندرية ومؤسساً لها فى أول الأربعينات ، وكنت فى هذا الوقت معيداً بالجامعة نفسها . ولقيته شخصياً فى تلك الفترة فى بعض المناسبات ، وتأملته واستمعت والتفت إليه بكل جوارحى ومشاعرى ، ولو لم أتحدث إليه إلا بنتف خاطفة من الكلام وعرفت من هو ، وبأى عقلية عبقرية كتب " الأيام " و" فى الشعر الجاهلى " و " ذكرى أبى العلاء " و " مع أبى العلاء فى سجنه " و " حديث الأربعاء " وغيرها وغيرها ، ولكن

أفكاره فى كتاب " مستقبل الثقافة فى مصر[٤] " كانت دائما هالة وضيئة تراها عينى الباطنة حواليه .

ثم انقطع هذا الاتصال الحلو المشع بكل جمال الثقافة وأصالة العلم ورصانة الحديث وسحره وطلاوته . انقطع هذا الاتصال الصامت تقريبا بانتقال العميد إلى القاهرة وانتقالى إلى انجلترا لدراسة الدكتوراه . وعرفت فى أثناء البعثة بتقلده وزارة التعليم (المعارف آنذاك) وما أكد العزم عليه من ثورة فى نظام التعليم كان قد وضع أساسها ونظرياتها فى كتاب " مستقبل الثقافة فى مصر " ، غير أن الأعاصير السياسية لم تمهله لتحقيق ما أراد بالشكل الذى دعا إليه فى كتابه .

وعند عودتى من البعثة سعيت إلى الانتقال إلى جامعة عين شمس بالقاهرة ، تلك الجامعة الناشئة فى ذلك الوقت ، وكان الزملاء يرغبون عن ذلك ويحاولون الفرار منه عندما كانت الدولة قد أجبرت بعض أعضاء هيئة التدريس من الإسكندرية خصوصاً على الانتقال إلى تلك الجامعة لأسباب ربما كانت سياسية ولو أنه كان يُعلن عنها أنها من أجل تدعيم الجامعة الناشئة بالقاهرة . ولكننى طلبت بنفسى الانتقال إليها متذرعاً بإيمانى بضرورة الإسهام فى تدعيمها ، غير أن الذى كان يحدونى إلى هذا فى الحقيقة هو حبى القرب من رحاب المعلم العظيم . وفى القاهرة ، وفى جو القرب المعطر بالثقافة الراقية ، جو القرب من طه حسين ومزيج من هذا الجو مع عقليتى وتكوينى ودراستى العلمية ، ومع ازدياد الحرية وتوافر الوقت للعَلّ والنَّهل من موارد الثقافة والأدب بعد حصولى على الدكتوراه ، كان يزداد فى ذهنى وضوح الفكر العلمى والنزعة العلمية عند طه حسين فى معالجة المسائل التى تعرَّض لها فى كتبه (وكان فى ذلك الوقت نائباً لرئيس مجمع اللغة العربية) . وحلا لى من هذا المنطلق أن أعقد مقارنة بينه وبين صنوه خالد الذكر أبى العلاء المعرى ، وخصوصاً بعد ما قدمنى إلى عالم أبى العلاء كتاباه " ذكرى أبى العلاء " وهو موضوع بحثه للدكتوراه و " مع أبى العلاء فى سجنه " الذى صدر بعد ذلك بأكثر من

---

(٤) طه حسين : " مستقبل الثقافة فى مصر " :جزءان ، مطبعة المعارف ومكتبتها ، ١٩٣٨ .

عشرين عاماً نتيجة لاصطحاب طه حسين للزوميات والفصول والغايات فى إحدى رحلاته إلى أوروبا . فوجدت أنه بقدر ما بين الشخصية الاجتماعية لكل من الأديبين العملاقين من تباين ، فإن هناك تقارباً وانطباقاً واضحاً بخصوص النزعة العلمية عند كل منهما . وحببنى ذلك فى مزيد من دراسة أبى العلاء لأجلوَ هذه الظاهرة عنده على ضوء ما آنسته فى فكر طه حسين فى هذا المجال . فتعلقت بدراسة " اللزوميات " و " الغفران " وتعمقت فى فهمها . وجمعت من دراسة " اللزوميات " بنظرة الدارس العلمى جملة كبيرة من الشواهد على اطلاع أبى العلاء العلمى الواسع والمتمكن على العلوم الطبيعية والتطبيقية فى عصره واستيعابها بعقلية علمية بالسليقة . ودونت هذه الشواهد فى جذاذات كمادة علمية لبحث نشرته فيما بعد .

وقرّبتنى الأقدار مرة أخرى فى القاهرة من القمة الشامخة عندما تم اختيارى خبيراً للجنة الجيولوجيا بمجمع اللغة العربية فى عام ١٩٥٨ فكنت أحضر جلسات المجمع وطه حسين نائب للرئيس ، ومجلسى بجواره ، أعرض مصطلحات الجيولوجيا فى المعادن والأحجار والجبال وأحوال الأرض . وكم نعم سمعى وانتشت نفسى واغتذى عقلى بتعليقات وأفكار له لم أسمع مثلها ولا ما يدانيها حتى من كثير من المتخصصين . ولا أنسى معركتى مع أحد الجهابذة من أعضاء المجمع من إحدى الدول العربية ، وكان يدعو إلى ترجمة أسماء المعادن والصخور بدلاً من تعريبها ،كأن يسمى معدن الأولفين مثلاً " الزيتونين " ومعدن السربنتين " الثعبانين " وصخر الجرانيت " الأعبل " . لا أنسى مقاومتى تلك الدعوة ، وقد أعجبت طه حسين شجاعتى وأعجبه استبسالى فى الدفاع عن رأيى وأنا بعد فى تاريخ انتسابى إلى المجمع عند عتباته لم أجاوزها إلى مقاعده . ولا أنسى كيف انتصر لرأيى بمهارة وكياسة وتعليل علمى النزعة مؤكداً أن هذه أسماء أعيان لا تجوز ترجمتها " فهى معادن وصخور ثابتة التركيب والمظهر ، كل منها متميز بذاته أينما يوجد كأنه علم ، وإذا جازت ترجمة هذه الأسماء فهل نترجم بالأسوة أسماء جبل المقطم مثلاً أو بئر زمزم أو جبال روكيز ؟ !

إن ترجمة أسماء هذه الأعيان تضيّع معانيها العلمية وتحدث اضطراباً وبلبلة فى

المراجع وفى أفكار الباحثين " .

وظللت أنعم بسويعات قليلة إلى جواره كلّ عام أو دورة مجمعية وهو نائب للرئيس ثم رئيس للمجمع فى عام ١٩٦٥ ، فنفذتُ إلى أعماق أسلوبه الفريد وفكره الفذ ، ظللت احظى بهذه المتعة الفكرية حتى وافاه الأجل فى أكتوبر ١٩٧٣ ، وخلا كرسيه العظيم بالمجمع . وألحّت الأقدار فى ربطى بذكراه فكان من حظى أن أفوز بعضوية المجمع فى العام التالى وبترتيب زمنى فى إعلان نتائج الانتخاب يجعلنى على هذا الكرسى الخالد المتشرف باسمه ، وكان طه حسين أول من تبوأه وأنا من بعده . واهتممت بالنجاز بحثى القديم عن " النزعة العلمية فى شعر أبى العلاء المعرى[٥] " من خلال تعلقى بطه حسين حتى أخرجت البحث ونشر بمجلة المجمع ضمن بحوث المؤتمر السنوى فى عام ١٩٧٦ ، وإنى لأحاول اليوم أن أتم هذه المقارنة بين الخالدين العظيمين احتفالاً بالعيد المئوى لمولد الراحل العظيم صنو أبى العلاء المعرى فى القرن العشرين .

وأول ما أقول فى هذا الصدد إن الشبه بين العلمين العظيمين لم يكن فى تلك الآفة العضوية التى لم تحل بينهما وبين النبوغ والإبداع الفذ الفريد ، بل والتى لم تحل بين النسخة العصرية من هذه الظاهرة الأدبية العبقرية وبين المجد الاجتماعى والسياسى ، ولكن الشبه كذلك كان فى تلك الذاكرة الشاذة الخارقة عند كليهما والتى ظلت كما هى حتى آخر العمر ، تلك الذاكرة التى لو وُصفت حتى بأنها " كمبيوترية " لكان فى هذا الوصف بخس لها . وإنى لأذكر كيف كنت أنصت إجلالا لطه حسين وانبهاراً بقوة ذاكرته فى آخر جلسة حضرها بالمجمع قبل وفاته (مايو سنه ١٩٧٣) وكانت تعرض فيها مصطلحات للجيولوجيا ، وكان يستشهد فيها بآيات من القرآن الكريم وأبيات عويصة من الشعر الجاهلى مناسبة للمقام . أما عن ذاكرة صنوه القديم فناهيك عن الحديث عنها وعن أخبارها ونوادرها التى طبقت الآفاق وغُصّ بها التراث ، وليس اليوم مجالها على أى حال .

---

(٥) محمد يوسف حسن : " النزعة العلمية فى شعر أبى العلاء المعرى " : مؤتمر مجمع اللغة العربية ، رقم ٢٤، عام ١٩٧٥/٧٤،ص، ٣٥٥-٣٧٩ .

وأما عن الشبه القوى الآخر الذى أريد أن أكشف عنه فى هذا الحديث ، فهو ذلك الاتفاق بينهما فى العقلية العلمية ، وقد بينت شأنها عند أبى العلاء فى بحث سابق أشرت إليه . كان أبو العلاء مغرماً ومُعجِزاً فى صياغة الحقائق العلمية المعروفة فى عصره فى إطار فنى بديع من الشعر الراقى المتكامل الأركان المعروفة للشعر . وكان يمثل للنظريات العلمية السائدة فى عصره بأشعار يصوغها أجمل صياغة فيثبّتها ذلك فى أذهان طالبى المعرفة من ذوى الذوق الفنى الراقى .

وكان صنوه طه حسين يصنع صنيعاً آخر مع الآداب والنقد الأدبى ، فيمثل ذلك ويستدل على قصده وعلى منطقه فيه بأمثلة من العلوم الطبيعية دامغة تبرر وجهة نظره . وكأنى بضميره كان لا يهدأ ولا يطمئن للرأى الذى أتى به إلا عندما يقوم عليه دليل من موضوع مشابه فى العلوم الطبيعية مما يتفق مع رأيه فى القضية الأدبية التى كان يعالجها .

ولكى نتعرف على هذا الأسلوب ، نسوق بعض الأمثلة الواضحة من كتابات طه حسين بنصها مما يظهر عمق هذه النزعة عنده وأصالتها . فهذه قطعة عن علم التاريخ على هامش بحث له ألقاه فى مؤتمر العلوم التاريخية الذى حضره فى بلجيكا عام ١٩٢٣ ، وهى مقتبسة من أحد كتبه بعنوان " من بعيد " (٦) بالصفحات من ٦٣ - ٦٥ ، يقول : " أشعر أن كثيراً من المصريين سيسخرون من التاريخ والمؤرخين ، ومن المؤتمر والمؤتمرين ، لأن التاريخ ليس من العلوم التى تعين صاحبها على أن يفلسف كما يقتضى العصر الذى يعيش فيه ؛ دائماً هو علم متواضع يزيد فى تواضعه أنه نزل فى هذا العصر عن ميزة قديمة كانت ترفع شأنه وتعلى مكانته وذلك أن الناس كانوا يتخذون الماضى وسيلة إلى فهم المستقبل (لاحظ نظرته المستقبلية الثاقبة وما تصوره من قدوم تطور جذرى سيؤدى إلى ثورة فى العلم والتكنولوجيا تقلب الموازين والمفاهيم تماماً ، فلا تنفع أية عبرة من الماضى فى فهم المستقبل والاستعداد له . ولاحظ أن هذا الكلام كتب فى عام ١٩٢٣ قبل دخول عصر الكمبيوتر والسفر والفضاء وثورة الاتصالات

---

(٦) طه حسين : " من بعيد " : الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٥٨ .

الخاطفة . . .) ، ثم واصل معى قراءة القطعة لنصل إلى قوله : " وكانوا يعتقدون أن له فائدة عقلية لأنه يعين على حسن الاستعداد للحياة . ولكن التاريخ تواضع ونزل عن هاتين الميزتين ، وأصبح لا يزعم لنفسه الفضل فى حسن الاستعداد للمستقبل ، ولا يزعم لنفسه القدرة على حل ألغاز الحياة ، بل أصبح يحذّر من تلك الأساليب القديمة التى كانت تقيس غداً إلى أمس وتفسر اليوم ما وقع منذ قرون ... وأصبح التاريخ ينكر مثل هذه الأساليب ، ويحذر الناس منها ، ويسخر من المتمسكين بها ، بل أصبح ينكر فلسفة التاريخ ، ويقنع بشىء واحد متواضع ، ولكن جليل الخطر ، وهو الوصول إلى استكشاف الحقائق التى وقعت فى الماضى استكشافاً علمياً صحيحاً معتمداً على البحث لا الفلسفة (ثم استمع معى جيداً إلى هذا التعليل والاستدلال) إذ يقول : " فهو (أى التاريخ) كالكيمياء لا يزعم لنفسه القدرة على تحويل المعادن إلى ذهب ، إنما يزعم لنفسه البحث عن الحقائق من حيث هى حقائق لا أكثر ولا أقل (ولاحظ هنا تفهمه الجيد للفرق بين أسلوب علم الكيمياء وأهدافه فى القديم والحديث) . ثم نتابع القراءة " إن أناساً كثيرين فى مصر سيسخرون من التاريخ ومؤتمر التاريخ ، ولكنى أؤكد لك أيها القارىء العزيز أنى لا أسخر من هذا ولا ذاك ، وإنما أكلف بالتاريخ وأعجب بمؤتمر التاريخ . ولكننا قد نصل إلى هذه المنزلة يوم نشعر بأن العلم يجب أن يُطلب لأنه علم ، لا لأنه يمكنك من أن تعيش ، أو من أن تعيش عيشة مترفة " .

فياليت المخططين لتقدم العلوم واللحاق بأهلها فى الغرب والشرق من علمائنا فى العلوم الطبيعية والإنسانية ، يعُون هذا الكلام الهام . وإنى لأرجع التخلف العلمى عندنا – والتكنولوجى بالتالى – إلى عدم تفقه هذه النصيحة العلمية الذهبية ، أو إلى المغالطة فى تطبيقها والتقليل من أهميتها لأسباب دعائية أو سياسية ترضى نزعات رعناء لمحترفى السياسة ، ولا ترضى ضمائر العلماء . وقد حدث هذا بشكل مستفز فى فترات قريبة جداً من التاريخ المعاصر فى مصر . ولو أن مخططينا العلميين وَعُوا هذا الكلام الذى يدعو إليه طه حسين أو أنهم أخلصوا ضمائرهم فيما ائتمنوا عليه ، وترفعوا عن الدعاية وكسب الإعجاب الزائف والجزاء الزائل ،

لكان لنا شـأن آخـر فى مـضـمـار العلوم والتكنولوجيا غير الذى نحن فيه الآن .

وهاك فقرة أخرى من كتابه " من بعيد " أيضاً من قطعة بعنوان (الأدب والأدباء) ص ٢٦٢ ، وهى بصدد التجديد فى الأدب ، يقول : " وهنا تسألنى ماذا أصنع بالقدماء ؟ والجواب يسير : أصنع بالقدماء ما صنعوا بأنفسهم ، فأنا ألتمس عصورهم فى هذه المرآة ، ولا ألتمس منهم العصر الذى أعيش فيه . ولقد كنت أضرب منذ أيام مثلاً للأدباء من أهل مصر : ما رأى أنصار القديم لو طلبنا إليهم أن يُهمَل ما وصل إليه العلم الحديث فى الطبيعة والطب ، وأن يُعتمد فى كليتى العلوم والطب على إشارات ابن سينا وقانونه ، أيرضون أم يصيحون ويستغيثون ؟ لا شك فى أن الأستاذ الشيخ علام يستغيث بالله وبالناس يوم يعرف أن طب باستور وكلود برنار قد أهمل ، وأن طبيبه سيعالجه منذ اليوم كما كان يعالج ابن سينا أو الحارث بن كلدة أو داود الأنطاكى ... ومع ذلك فالأمر فى الأدب كالأمر فى الطبيعة والطب ، لا ينبغى أن يُهمَل طب ابن سينا وطبيعته ، لأنهما يمثلان عصراً من عصور الحياة العلمية ، ولا يُهمَل أدب المبرّد والجاحظ لأنهما يمثلان مظهرا من مظاهر الحياة الأدبية ، فهما يدرسان على أنهما فصل من تاريخ الأدب ، ولكننا نجدّد الأدب درسا وإنشاءً كما يجدد الطبيعيون والأطباء طبيعتهم وطبهم عملا ونظرا »

واقتبس لك فقرة من مقدمته لكتابه "فى الأدب الجاهلى " (صفحة ٢٩) يؤكد فيها أسلوبه العلمى ، وينبه فيها إلى ضرورة الأخذ بالأسلوب العلمى فى دراسة التاريخ الأدبى وتفهم الشخصيات الأدبية وطبيعة إنتاجها . ويقول : " إنك لا تستطيع أن تفهم الأثر الفنى للكاتب أو الشاعر إذا اعتمدت على ما تعودنا أن نعتمد عليه من علوم اللغة ومن الأنساب والأخبار ومن النقد ، وإنما قد تحتاج أن تعتمد على أشياء أخرى ليس بينها وبين الأدب صلة ظاهرة . ولنضرب مثلاً بشاعر كالمتنبى أو أبى العلاء ، فكن أقدر الناس على فهم النحو وعلوم اللغة كلها والأخبار والتاريخ . وكن أمهر الناس فى علوم المعانى والبيان والبديع ، فلن يكفيك ذلك فى فهم شعر المتنبى وشعر أبى العلاء . وإنما أنت محتاج إلى الفلسفة الخلقية لتفهم المتنبى ، وأنت محتاج إلى الفلسفة الطبيعية ، وإلى الفلك وإلى علم النجوم ، بل إلى الرياضة أحيانا لتفهم شعر أبى العلاء » . وفى حديث له

عن الثقافة ودرس الأدب بكتابه : « فى الأدب الجاهلى » بعد أن أكد طه حسين ضرورة إلمام دارس الأدب بعدد كبير من العلوم اللغوية ، والتاريخ ، واللغات القديمة كالسامية والفارسية واليونانية واللاتينية ، واللغات الحية كالإنجليزية والفرنسية ، وأيضاً الفلسفة وغير ذلك ؛ يقول فى ص ٢٠ - ٢١ : ستقول ... أليس اشتراط هذا كله فناً من فنون التعجيز وضرباً من الإغراب والتيه ؟ .... ومن الذى يستطيع أن يصدّق أن أستاذ الأدب فى فرنسا أو إنجلترا يتقن مثل هذا المقدار الضخم من الدراسات قبل أن يأخذ فى درس أدبه الفرنسى أو الإنجليزى ؟ ... ستقول هذا ... فلتلاحظ قبل كل شىء أنى لا أعرف - وأزعم أنك لا تعرف - أستاذاً للأدب الفرنسى أو الإنجليزى يستحق هذا اللقب إلا وقد أتقن اليونانية واللاتينية لغة وأدباً وفقهاً وفلسفة ، ثم أتقن إلى جانب هذا كله لغتين من اللغات الحية على أقل تقدير ، ثم فرغ بعد هذا ... الخ ؛ ثم لنلاحظ بعد هذا أن قد ذهب العصر الذى كان الناس يقبلون فيه أن يلم الرجل الواحد بكل شىء وينفرد بنوع من أنواع العلم يدرسه وينبغ فيه ... انقضى هذا العصر ، وأصبح الأفراد عمالاً يتأثرونفى العلم كما يتأثرون فى الصناعة ، ويتأثرون فى الجامعة والكلية ، كما يتأثرون فى المصنع والمتجر بقانون توزيع العمل (وانظر هنا إلى تشبيهاته بمسائل واقعية تتصل بالصناعة والعلم والاقتصاد) . ثم يقول : " ولكن تأثرهم بهذا القانون ليس معناه أن كل واحد منهم يتقن المسألة أو المسألتين ويجهل ما عداهما وإنما معناه أن كل واحد منهم يتخذ العُدة المتقنة لعمله ، ثم يوفر جهوده وقواه على فرع من فروع هذا العمل ليكون له أشدُ إتقاناً فى حين يفرغ رجل آخر لفرع آخر ، وعلى هذا النحو ، فإذا قلنا إن هذه الدراسات المتقدمة أساسية لدرس الأدب ، فإنما نريد أن يفرغ لكل واحدة من هذه الدراسات طائفة من الأخصائيين ، وأن يعتمد الأديب فى بحثه الأدبى على خلاصة ما ينتهى إليه هؤلاء الأخصائيين من النتائج العلمية ... " (ثم استمع إلى ما يأتى لترى كيف يعود إلى ضرب المثل أو التشبيه بقضية مناظرة من العلوم الطبيعية حتى يطمئن - كما

سبق القول فى أول الحديث – إلى ضمان اقتناعه ، ومن ثم اقتناعك بما يريد إظهاره) ، إذ يقول : " .. ودع الأدب واقصد إلى أصحاب العلم الخالص فحدثنى : أيستطيع صاحب الحيوان أو صاحب النبات أن يعرض لعلم الحيوان أو علم النبات ولما يأخذ لهذا العلم عدته من إتقان الطبيعة والكيمياء على اختلاف فروعهما ؟ وهل يستطيع أن يتقن الطبيعة دون أن يأخذ بحظ موفور من الرياضة والجيولوجيا والجغرافيا ؟ هل يستطيع أن يأخذ بحظ وافر من هذا كله دون أن يظفر قبل كل شيء بهذه الثقافة المتينة العميقة الواسعة التى يحتاج إليها كما قدمنا العالم والأديب والرجل المستنير ؟ وهل نعرف عالماً فرنسياً خليقاً بلقب العلماء لا يتقن اللغات الحية الأوربية الراقية ولا يأخذ بحظه من اليونانية واللاتينية ؟ "

" ... ثم حدثنى بعد هذا ، أتظن أن هذا العالم الذى اتخذ هذه العدة وتسلح بهذا السلاح يستقل بعلم الحيوان أو علم النبات ، أو يفرغ لما يحتاج إليه فى مادته من الكيمياء والطبيعة والرياضة ؟ كلا إنه يفرغ لفرع من فروع علم الحيوان ، ويعتمد على ما يصل إليه أصحاب الطبيعة والكيمياء من النتائج العلمية ، ولكنه مضطر إلى أن يتقن وسائل علمه ليكون قادراً على المراقبة والمراجعة والملاحظة والتحقيق كلما احتاج إلى شيء من هذا . وكذلك الأدباء أو أساتذة الأدب فى أوروبا وكذلك نريد أن يكون أساتذة الأدب فى مصر " . (ص ٢٢) .

ونلاحظ هنا الدقة والصحة الكاملة فى ترتيب الأولوية للعلوم الطبيعية التى يحتاج إليها دارس علم معين منها . أهو استشار المتخصصين قبل أن يدون هذا الترتيب ، أم أنه بعقليته العلمية السليقية قد استشعر أن هذا هو الترتيب الصحيح ؟ .. والراجح عندى هو الرأى الثانى . ثم نقلب الصفحات لنرى كيف يلخص رأيه فى الموضوع ليعطيك منه الزبد فى إيجاز شامل بعد تفصيل كامل ، ولكنه يحرص رغم الإيجاز على ذكر الأمثلة من العلم الطبيعى والتطبيقى ، وذلك لأنها أمثلة تشير بها عقليته العلمية ، ولعمق اعتقاده فيها يريد أن يؤكد أنها أمثلة

تُحتذى ، فيقول فى (ص ٣١) :

" .. ولكن يجب أن تعود فتفكر فيما قدمت بين يديك فى صدر هذا الكتاب من أن الأدب كغيره من العلوم لا يمكن أن يوجد ولا أن يثمر إلا إذا اعتمد على علوم تعينه من جهة وعلى ثقافة عامة متينة عميقة من جهة أخرى . فقد ضربت لك الأمثال بعلوم الطبيعة يتصل بعضها ببعض ، ويحتاج بعضها إلى بعض ، دون أن يكون بعضها من بعض . فالطبيعة محتاجة إلى الرياضة دون أن تكون الرياضة فصلاً من فصول الطبيعة أو الطبيعة فصلاً من فصول الرياضة " .

وفى ص ٣٥ من الكتاب نفسه يقول : فى موضوع تصنيف الأدب : " .. إنما نريد أن نقول إن الصلة بين الأدب الوصفى والأدب تشبه أن تكون كالصلة بين الفنون الطبيعية والرياضة وعلومها . فقد عرف الناس الفنون الطبيعية والرياضية وانتفعوا بها قبل أن يعرفوا علوم الرياضة والطبيعة ، فمسحوا الأبعاد ، ورفعوا الأثقال ، وحولوا الأجسام من هيئة إلى هيئة ومن صورة إلى صورة واهتدوا بالنجوم ، قبل أن يعرفوا أو يحققوا النظريات التى تعتمد عليها كل هذه الفنون .. "

فمن أهل الأدب فى زمانه من اكتشف كنه هذه العلاقات بهذه الدقة وبهذا القياس إلى نظائرها في العلوم الطبيعية ؛ أما عن أهل العلم الطبيعى فأزعم أن أحداً منهم لم يفكر أو يتطرق إلى مثل هذه المقارنة مهما كان اهتمامه بعالم الأدب . ومرة أخرى أقول : يا مخططى تدريس العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية تفهموا هذا الكلام واقرءوا لطه حسين أعظم من تولى وزارة التعليم فى مصر الحديثة ولكن للأسف لأقصر مدة فى تاريخها ، اقرءوا له إذا أردتم وضع الخطط السليمة لدراسة العلوم والآداب والرقى والتقدم بالبحوث فى مجالاتكم .

وسأقتبس لك فقرة من كتابه " مع أبى العلاء في سجنه " يدافع فيها عن أسلوبه العلمى فى درس الأدب والأدباء ، ويسوق الدليل العلمى على سلامة دفاعه عن رأيه ، وكان بعض الناس قد هاجموه على طريقته فى درس المتنبى ، يقول :

« .. وأنا أعرف أن العلم يكلف أصحابه أهوالاً ثقالاً ، ويحملهم من بعض الأمر على مالا يحتبون أن يُحملوا عليه ، فيضطرهم

أحياناً إلى هتك الأستار وفضح الأسرار ، وإظهار الناس من أمر بعضهم على ما لا ينبغى أن يظهروا عليه . تلك تضحيات يتكلفها العلماء فى سبيل الوصول إلى الحق ، لا يشبهها إلا ما يتكلفه أصحاب العلوم التجريبية من تعذيب الحيوان فى سبيل ما يبتغون من العلم الخالص أو من العلم الذى ينفع الناس فى حمايتهم من العلل والآفات " . (ص ١٩) .

أرأيت كيف يطمئن إلى صحة أسلوب الدرس الأدبى طالما وجد له ما يدعمه من الأساليب المشابهة فى مجالات العلم الطبيعى ؟ وانظر كيف يطمئن إليه مهما يكن من استهجان التقليديين وأنصار القديم لذلك فى دراسة الأدب . ومع ذلك فطه حسين هو الأديب المرهف الشعور ، الجياش العاطفة ، الرحيم القلب . انظر إليه وهو أحياناً يستثنى من هذا الأسلوب من يحبهم من الأدباء ، ويحس فى قرارة نفسه نقاء سريرتهم وإنسانية سيرتهم ، فيمتنع عن معاملتهم بهذا الأسلوب إلى حد ما ، ولكنه فى الحال يعلن أسبابه ومبرراته لذلك ، فتكون النتيجة أنه ينشىء أدباً غاية فى الطلاوة ، وقمة فى الفن الراقى النافذ إلى حبات القلوب ، الآخذ بنواصى الإعجاب . واقرأ لنفسك – إن شئت – ما يلى الفقرة التى اقتبستها لك لترى كيف يبرر هوادته وترفقه وتحفظه عندما يتعرض بالدرس لأبى العلاء ، فلا أظن مجال هذا الحديث يتسع لذلك . ولحظوته بهذه العقلية العلمية ، وميله السليقى إلى الأسلوب العلمى وإعجابه به ، كان طه حسين من أوائل من لفت الأنظار إلى ما يسمى بالمقياس العلمى فى تاريخ الآداب ، بل لعله أول من أدخل تطبيقه على الأدب العربى . وارجع في هذا إلى تلخيصه الرائع للمدارس الفرنسية المختلفة المتفقة فيما بينها ، على حد تعبيره الجميل فى هذا المجال ، وهى مدارس سانت بيف (St. Beuve) . وتين (Taine) وبرونتير (Brunetier) . ارجع إلى هذا التلخيص فى كتابه " فى الأدب الجاهلى " ، ص ٤٥ وما بعدها ، لتلمس تفهمه العميق لهذه النظريات العلمية الصرفة التى أخذت فى أواخر القرن الماضى من علوم النفس ، والتصنيف الأحيائى ، والبيئة الطبيعية ،

والتطور العضوى لترسم سبلها المختلفة لتأريخ الآداب . انظر إلى قوله : " يتفقون (أى أصحاب هذه المدارس) فى أنهم يريدون أن يجعلوا تاريخ الأدب علماً كغيره من العلوم الطبيعية ، ويختلفون فى الطريق التى يسلكونها إلى هذا الغرض . . ثم تأمل نقده النافذ النافع للأسلوب المتطرف لهذه المدارس وعدم انبهاره ورضاه عن تحيزها الشديد فى المعالجة العلمية لتاريخ الأدب ، إذ يقول : " ولكن أوفقوا فيما حاولوا ؟ كلا ، لم يوفقوا ، ولا يمكن أن يوفقوا ، لا لشىء إلا لما قدمناه من أن تاريخ الأدب لا يستطيع بوجه من الوجوه أن يكون موضوعياً صرفاً ، وإنما هو متأثر أشد التأثر وأقواه بالذوق ، وبالذوق الشخصى قبل الذوق العام . " (ص ٤٦) .

ثم يقول فى ص ٤٩ " فتاريخ الآداب إذن يجب أن يتجنب الإغراق فى العلم ، كما يجب أن يتجنب الإغراق فى الفن ، وأن يتخذ لنفسه بين الأمرين سبيلاً وسطاً " .

ويعجبنى أن أقتبس لك هنا من ختام فصله عن هذه المدارس (ص ٥٤ من المرجع نفسه) قوله : " .. إن لفظ التاريخ نستعمله نحن الآن فيما يستعمل فيه الأجانب لفظ " Histoire " وأصل هذه الكلمة الوصف ، والوصف كما فهمه أرسطاطاليس عندما كتب تاريخ الحيوان . فتاريخ الآداب معناه وصف الآداب وصفاً علمياً من بعض الوجوه كما أن التاريخ الطبيعى معناه الوصف العلمى للكائنات الطبيعية .." وهذه الفقرة تصخب بما فيها من مفاهيم علمية أصيلة مكيفة إلى ما يصلح أن يطبق على تاريخ الآداب .

هكذا عرضه المقتدر للمقاييس والمدارس العلمية لتاريخ الآداب . وهكذا نقده المحكم لها . وهكذا يكون الفنان الأصيل والعالم المدقق فى آن واحد .

وتعال معى إلى مثال آخر طريف نتأمل فيه نظريته فيما ذهب إليه أبو العلاء فى أحد فصول كتابه " الفصول والغايات " يقول أبو العلاء : " ... يقدر ربنا أن يجعل الإنسان ينظر بقدمه ، ويسمع الأصوات بيده ، وتكون بنانه مجارىَ دمعه ، ويجد الطعم بأذنه ، ويشم الروائح بمنكبه ، ويمشى إلى الغرض بهامته ، وأن يقرن بين النير وسنير حتى يريا كفرسى رهان ، وينزل الوعل الرِّعل من النيق

ومجاوره الوذنيق حتى يشد فيه الغرض ، وتكرب عليه الأرض ، وذلك من القدرة يسير، وسبحان ملك الملوك ، عظيم العظماء .» .

لقد علق طه حسين على كلام صنوه العظيم القديم تعليقا ممتازا محيطا من الناحية العلمية والفلسفية ، يخيل لمن تخصص فى علوم البيولوجيا أن المعلق قد تبحر فى قراءة علم تكيف الأعضاء ، وظاهرة الانتهازية فى التطور العضوى (Opportunism in Evolution) ولكن رأيى فى كلام طه حسين أنه فقط وليد القريحة والسليقة العلمية لفكره . وأوجز هنا تعليقه إيجازا أرجو ألا يخل بقيمته وعمقه . ولمن يريد الإحاطة فليطلع على الأصل فى كتاب « مع أبى العلاء فى سجنه » صفحات (٢٣٢ - ٢٣٧) .

يقول طه حسين : « أترى إلى هذا الإنسان الذى صوّره أبو العلاء بخياله هذا الغريب ، ناظرا بقدمه ، ماشيا على رأسه ، سامعا بيديه ...الخ ؛ أترى إلى هذين الجبلين قد استقر أحدهما فى الشام والآخر فى نجد ، وقد جمع بينهما فى قرن فهما يستبقان ؟ ... الخ .

أترى إلى الوحش التى ألفت أعالى الجبال وقد تغير إلفها فاطمأنت فى السهول المنخفضة ؟ أترى على الجملة إلى هذه المفارقات التى تكثر فى الفصول والغايات كثرة تثير الدهش حقاً ؟ ماذا أراد بها أبو العلاء ؟ أما ظاهر هذا الفصل فواضح لا غموض فيه ، فأبو العلاء ينبئنا بأن قدرة الله شاملة تسع كل شىء ممكن فى رأى العقل ، وأن هذا العالم كما هو ليس إلا صورة ممكنة من صور أخرى ممكنة أيضاً ، وأن الذى أوجد هذه الصورة الممكنة قادر على أن يوجد غيرها من الصور.. الخ . حتى يقول : " ولكن أمن الحق أن أبا العلاء لم يقصد إلا هذا ؟ أمن الحق أننا نستطيع أن نكتفى منه بظاهر القول ، وهو الذى يقول :

لا تقيد على لفظى فإنى
مثل غيرى تكلمى بالمجاز

..... الخ .

ثم يتطرق طه حسين إلى شرح نظريات أبيقور فى إنكار العلة الغائية ، وفى ميكانيكية تكيف الأعضاء لوظائفها على أساس أنها وجدت كذلك فقامت بالوظيفة المناسبة لتركيبها ، أو أنها بعبارة أخرى قد

أوجَدَت غاياتها ولم توجد هى لتحقيق تلك الغايات . ثم يعلق بقوله : " وإذن فمن الكبرياء المسرفة أن يظن الإنسان أنه الغاية من وجود العالم . . . . . الخ . "

وأما عن شرحه أن العالم ليس إلا صورة ممكنة من صور أخرى لانهائية ممكنة أيضاً ، فذلك أحسن صيغة علمية فى رأيى لما قصد إليه أبو العلاء فى هذا الفصل من فصوله وغاياته ، كما أنه فى الوقت نفسه أجمل وصف أدبى لما توصل إليه العلم الطبيعى الحديث أخيراً جداً من بحثه فى عالم المادة والقوى وطبيعة الكون ، وما أسفر عنه هذا البحث من نظريات " المادة وضد المادة ونظرية " أصل الكون بالانفجار العظيم " ونظرية " المشاهد المشارك " ، وقاعدة "عدم اليقين " فى مجال الفيزياء النووية والجسيمية . ولايُخرج مثل هذا الشرح فى رأيى سوى مخيلة أدبية عبقرية ، علمية النزعة فى آن واحد .

ومثال آخر من الكتاب نفسه " مع أبى العلاء فى سجنه " (الصفحات ١٠٥-١١٠) نقتبس منها ما يظهرنا على سجيته العلمية السباقة إلى النظر الفاحص فى الظواهر الأدبية المشكلة وتعليل وقوعها . فهو قد استنبط فى هذا الكتاب نظرية فى أسباب نظم أبى العلاء للزوميات ، فتعال لنرى كيف توصل إلى تلك النظرية . وهو يقدم لذلك فيقول : " وأول ما أواجهك به من ذلك ، وأنا أقدر أنك ستلقاه منكراً له ثائراً عليه ، هو أن اللزوميات ليست نتيجة العمل ، وإنما هى نتيجة الفراغ . وليست نتيجة الجد والكد ، وإنما هى نتيجة العبث واللعب . وإن شئت فقل إنها نتيجة عمل دعا إليه الفراغ ، ونتيجة جد جرّ إليه اللعب . . . ولأوضح ذلك بعض التوضيح فقد أهدّىء من ثورتك وأحول إنكارك إلى إقرار واعتراف . "

" فقد لزم أبو العلاء داره لا يبرحها نصف قرن ، فقدّر أنت نصف القرن هذا كم يكون من سنة ومن شهر ومن أسبوع ومن ساعة . وقدر أنك اضطررت إلى أن تلزم سجناً من السجون، وليكن هذا السجن دارك التى رتبتها كما تريد وتهوى أثناء هذا الدهر الطويل ، فهل تتصور الإقامة فى هذا السجن أثناء هذه الأعوام المتصلة فى حياة مطردة مستوية يشبه بعضها بعضاً كما يشبه الماء الماء ؟ ونظر أبو العلاء فرأى نفسه بين هذه الألفاظ التى لا تكاد

تحصى وبين هذه المعانى والآراء التى لا تكاد تحصى أيضاً ، ولم يجدْ معه إلا هذه المعانى وتلك الألفاظ ، ثم نظر فوجد أوقات الفراغ طويلة لا يطاق احتمالها ولا يمكن الصبر عليها . فما قيمة ما حفظ من اللغة ، وما قيمة ما حفظ من العلم إذا لم يعيناه على قطع أوقات الفراغ هذه . . . "

" فلم لا يلعب بهذه الألفاظ ؟ ولما لا يلعب بهذه المعانى . ولم لا يتخذ من الملاءمة بينها على أكثر عدد ممكن من الأوضاع والأشكال والضروب سبيلاً إلى التسلية والاستعانة على الفراغ ؟ . . . " .

ثم قلب الصفحات معى لنصل إلى قوله :

" . . . أحصى حروف المعجم فوجدها ثمانية وعشرين حرفاً ، ثم أحصى الحركات التى يمكن أن تختلف على هذه الحروف فوجدها ثلاثاً ، وأضاف إليها السكون فحصلت له من هذا أشكال أربعة للقافية ، فلما استقام له هذا الحساب أخذ نفسه بأن ينظم شعراً يقفيه بكل هذه الحروف مضمومة ومفتوحة ومكسورة وساكنة . ولو قد اكتفى بذلك لكان فيه الجهد ، كل الجهد والعناء كل العناء ، ولكنه أضاف إليه التزام الحرف الذى يسبق القافية فى البيت الأول من القصيدة أو المقطوعة بحيث لا توجد القافية فى أى بيت من أبيات القصيدة أو المقطوعة إلا ومعها هذا الحرف الذى سبقها فى البيت الأول . . . "

فتأمل كيف سطعت على ذهنه هذه الفكرة الإحصائية فصادفت هواه الفطرى فى التعليل العلمى ،فانصرف يحسبها حساباً ليقيم عليها نظرية مقنعة لأسباب التزام أبى العلاء ما لا يلزم فى نظم سفره العظيم " لزوم ما لا يلزم "

ونترك النصوص إلى باب آخر عن براعة طه حسين فى الوصف المادى الذى هو من أخص أدوات المشتغلين بعلوم التاريخ وأهمها . ولقد كان طه حسين يأتى فى هذا المجال بتشبيهات فريدة تنم عن عقلية علمية تسيطر على فكره عندما يدقق الوصف ليطابق الموصوف . فمن هذه التشبيهات الفريدة وصفه رجلاً بليداً بقوله : (والحديث للدكتور سيد أبو النجا ، ذكره فى تقديمه لكتاب " مع طه حسين " لسامى الكيالى) [٩] : " له نفس ملساء تتدحرج من فوقها الأحداث فلا تكاد تترك فيها أثراً . " واستمع إلى هذه العبارة الفذة

---

(٩) سامى الكيالى : " مع طه حسين " : دار المعارف ، سلسلة " اقرأ " رقم ٣٧٥ ، عام ١٩٧٣ .

من كتابه " جنة الحيوان " (ص ٨) ، التى يصف فيها حركة الثعلب وصوته فى مفارقة دقيقة جميلة أخرجها أدبه العبقرى بالاشتراك مع فطرته العلمية الدفينة ، فأقتبس لك هنا تعليق تلميذته الخالدة الدكتورة سهير القلماوى[١٠] فى هذا الموضوع ؛ تقول (ص ٨٦) : " صوت الثعلب الذى يصف شكله على أنه كالكثيب المنهال الذى يسأل الناظر نفسه أإنساناً يرى أم كومة من الرمال لولا هذا الصوت الذى يخرج منه ضئيلاً نحيلاً . ثم تضيف : " وكأنما يريد الدكتور طه أن يقابل بين شكله وصوته بهذه المفارقة التى لا أدرى مدى انطباقها على واقع من أسماه " الثعلب". وصوت آخر لرجل رمز إليه بالطفل فى كتابه " جنة الحيوان " ، يصفه بأن محطم لايكاد السامع يسمعه حتى يستحضر إناء من الزجاج أو من الفخار قد أصابه شق يسير فهو لا يرسل الصوت إذا مس إلا حدثنا بهذا الانحطام وهذا التنفس السريع . " (ص ٨٧ من المرجع نفسه) . هذه الأصوات وغيرها كثيرة يعجز عن أن يأتى بها المبصرون من تجاربهم وملاحظاتهم على الأشياء والطبيعة بما يدانى هذا الوصف الدقيق المعجز .

ولنخفف شيئاً من جو الجد الصارم الذى احتوى الموضوعات التى أخترناها ، فنذهب إلى جانب جذاب وهو موضوع الحب فى كتاب لطه حسين بعنوان (ألوان) [١١] وقد عقد فيه مقارنة شائقة بين معالجة " ابن حزم " و " استندال " للموضوع . وعنوان هذا الفصل هو : " فى الحب " ، يستهل طه حسين كلامه بقوله : سيبسم لهذا العنوان قوم ، وسيعبس له آخرون . وسيكون بين الباسمين من يبسم عن رضا لأنه يريد أن يقرأ عن الحب شيئاً ، ومن يبسم عن سخرية لأنه لا يرضى أن يكون الحب موضوعاً للحديث فى مجلة يُنتظر منها الجد الصارم ولا يحب منها الإقبال على لغو الحديث . وأما العابسون فسيكون عبوسهم سخطاً خالصاً لأن حديث الحب لهوٌ كله ، وما أكثر الصحف والمجلات التى تلهج باللهو وتغرق فيه . " ..." ومع ذلك فقد كانت حياتنا فى العصر الأول أسمح من ذلك كله وأكثر يسراً ." ويستطرد طه حسين بقدر صفحة أو اثنتين فى معالجة أدبية تاريخية تحليلية شائقة رائعة للموضوع ،وبعدها يقول ص (١٠١) : " لا أريد أن

(١٠) سهير القلماوى : " ذكرى طه حسين " : دار المعارف ، سلسلة " اقرأ " رقم ٣٨٨ ، عام ١٩٧٤ .
(١١) طه حسين : " ألوان " : دار المعارف ، ط ٤ ، ١٩٧٠ .

أتحدث عن الحب مرغباً فيه أو مرغباً عنه ، محسناً له أو زارياً عليه . بل لا أريد أن أتحدث عن الحب فى نفسه وإنما أريد أن أتحدث عنه من حيث إنه كان موضوعاً للبحث والدرس والتأليف عند أديبين عظيمين : أحدهما عربى مسلم قديم ، والآخر أوروبى مسيحى حديث . فأما أولهما فهو ابن حزم الأندلسى وقد عاش فى القرن الحادى عشر ، وأما ثانيهما فهو استندال الفرنسى وعاش فى القرن التاسع عشر . " .

ثم نقلب صفحات عدة يقارن فيها بين الأديبين حتى يقول ص١٠٥:" ومن الحق أن ابن حزم تحرج شيئاً أو كاد يتحرج شيئاً من الكتابة فى هذا الموضوع ، ولكنه لم يلبث أن يعفى نفسه من هذا الحرج بآثار رواها فى أول الكتاب ... ومنها ما رواه بسنده المتصل إلى أبى الدرداء رحمه الله أنه كان يقول : أجموا النفس بشىء من الباطل ليكون عوناً لها على الحق ... ، وكان هذا أشبه باستئذان للدخول فى هذا الموضوع الخطير الذى يظهر أن ابن حزم فكر فيه وعاش معه إلى أن مات . "

وأخص ما يتفق فيه ابن حزم واستندال أنهما لم يريدا أن يكتبا فى الحب كتابة المتزيد المتكلف ، وإنما أرادا أن يكتبا فيه كتابة العالم الذى يؤثر البحث والاستقصاء ويعتمد على الملاحظة والمشاهدة ، ويستنبط من هذا كله أصولاً وقواعد هى أشبه بالعلم وأقرب إليه من شبهها بالأدب وقربها إليه ، فليس الذى يعنيهما أن يرويا الأخبار ولا أن يفلسفا فى غير موضوع للفلسفة ، وإنما الذى يعنيهما أن ينظرا إلى الواقع ويعمدا إليه ويأخذا منه فى غير تكلف ولاتصنع أيضاً ، كلاهما يريد العلم ويعتمد على الظواهر الواقعة ، ولكن أحدهما يعيش فى القرن الحادى عشر والآخر يعيش فى القرن التاسع عشر . وبين حياة العقل الإنسانى فى هذين العصرين أمد بعيد ، فابن حزم يعيش فى عهد الكلام وما بعد الطبيعة ، واستندال يعيش فى عهد العلم والتجربة فليس غريباً أن يكون ابن حزم فيلسوفاً حين يفسر الظواهر الواقعة ، وأن يكون استندال عملياً حين يفسر هذه الظواهر نفسها . "

فانظر معى كيف اكتشف طه حسين فى كتابين مشهورين من كتب الأدب يتصلان بهذا الموضوع الحساس الجياش بالعواطف الرقيقة والخيالات الشاعرة آفاقاً علمية واقعية ، وكيف سلط على الكاتبين والكتابين أشعة فاحصة من أجهزة فكره العلمى ، مستنبطاً النظرية العلمية لكل

منهمـا فى هذا الموضـوع الشائق ، وهو فى الوقت نفسه قد استطرد استطراداً جميلاً مقنعاً لم يفـسـد طرافـة الموضـوع وحلاوته ، غـيـر أن الوقت يضـيـق عن تلخـيـص مـا أورده ، فـمن يتشوق إلى المزيد ، فليرجع إلى البحث نفسه فى كتاب " ألوان " صفحات ٩٩ – ١١٩ .

وبعد فهذه أمثلة من الفكر العلمى المنبث فى أدب طه حسين الزاخر ، ونماذج من معالجته العلمية للكثير من القضايا الأدبية فى تراثه ، مما سمح به الوقت المتاح لهذا الحديث فى هذه الذكرى .

محمد يوسف حسن

عضو المجمع